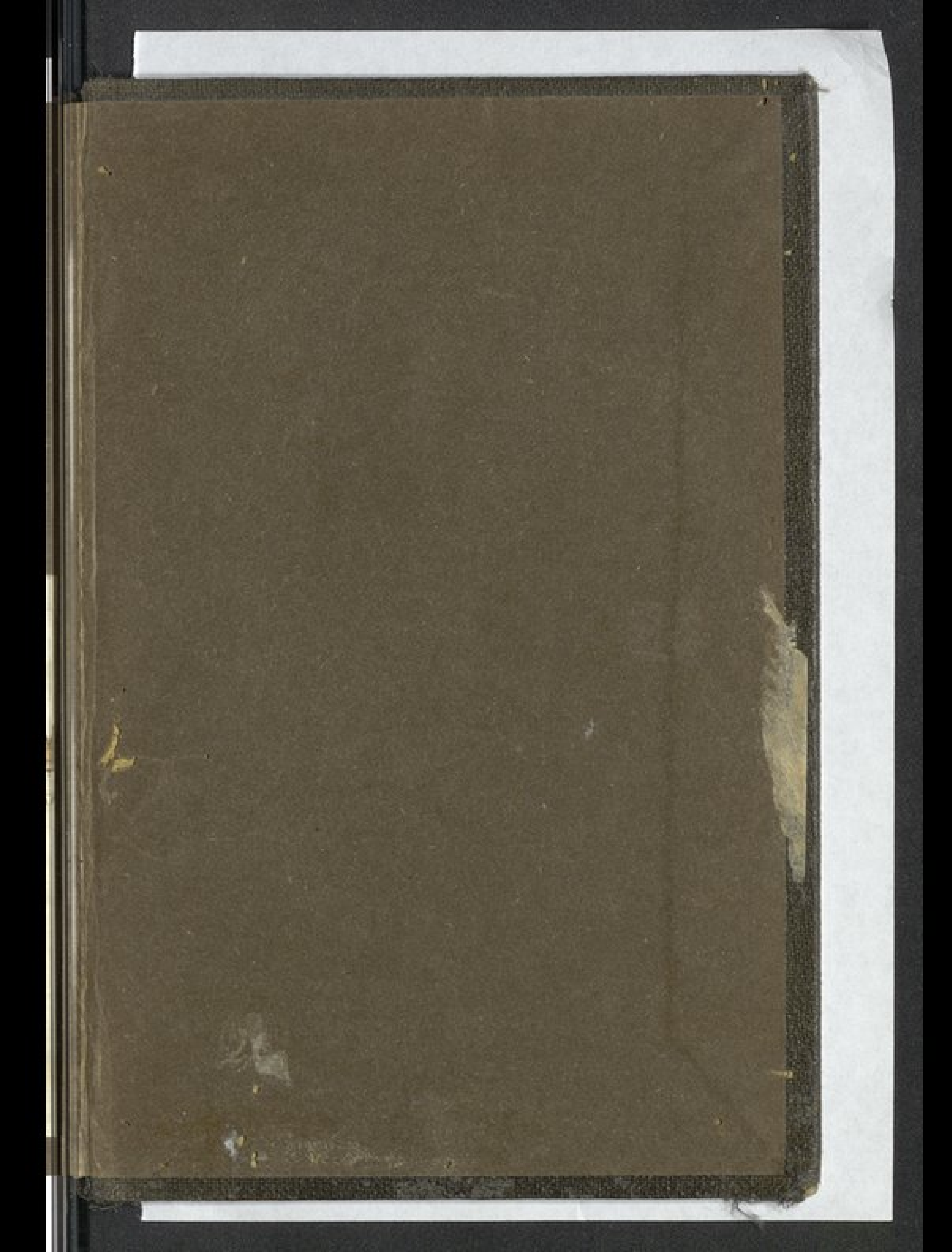
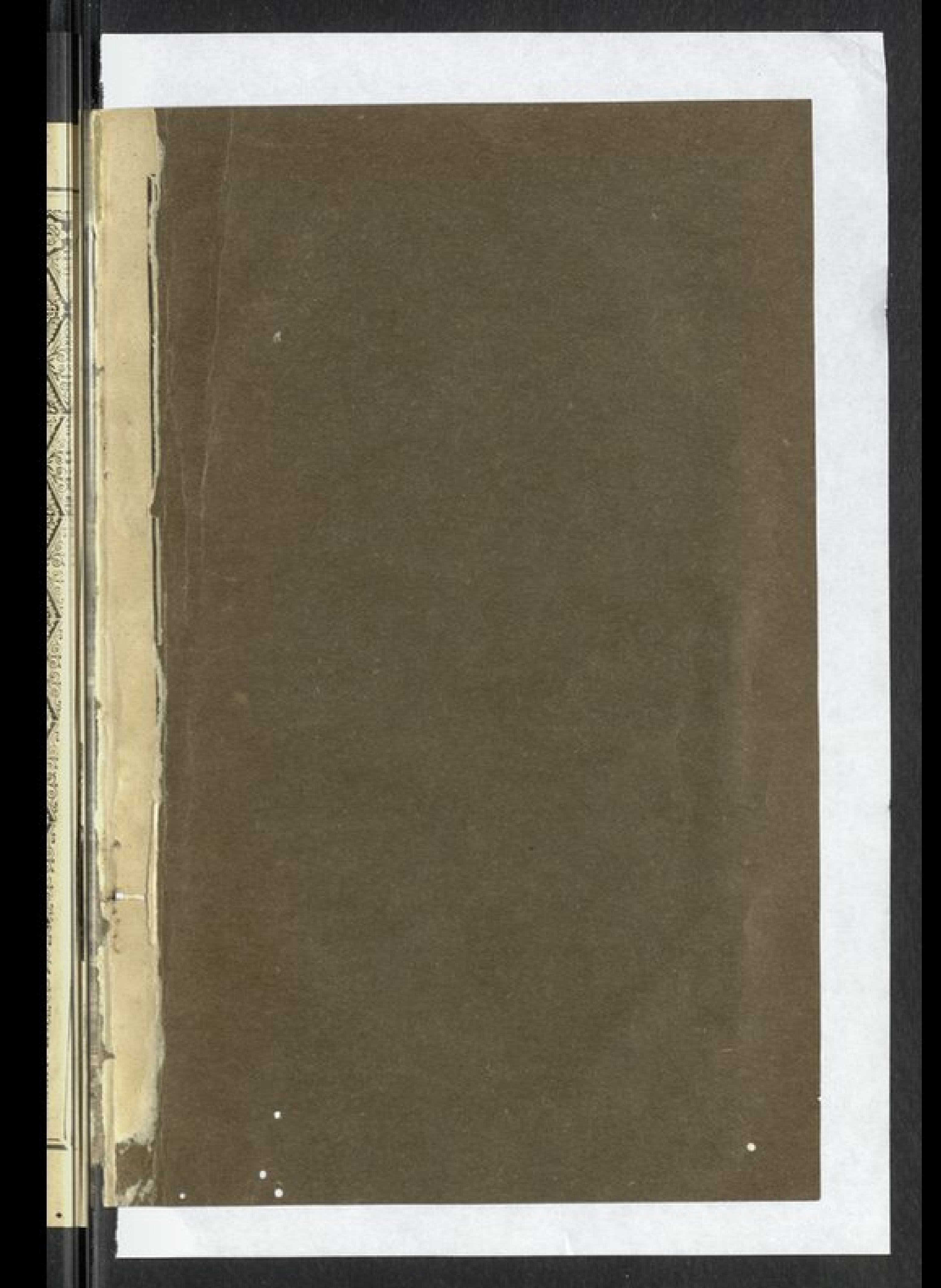
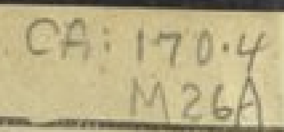
الاخلاق مجموع عادات

معلوف







الاخلاق مجموع عادات

خطاب القاه في المدرسة الشرقية للروم الكاثوليك
في زحلة يوم الخميس في ٢٠ شباط سنة ١٩٠٢

عيسى اسكندر معلوف

مدرّس البيان العربي والعلوم التعليمية فيها

ان للعادات سرًّا ... طيّه ضرٌّ ونفعُ
فيها للبعض خفضٌ ... وبها للبعض رفعُ
وهي بالتكرار خُلقٌ ... زانه بالفضل وضعُ
فلذا الامثال قالت ... عادة الانسان طبعُ

طبعت بنفقة المدرسة الشرقية في زحلة

بالمطبعة الادبية في بيروت سنة ١٩٠٢

✻ توطئة ✻

كم عادة جلبت مضرّات وكم جلبت منافعَ عادةُ الساداتِ
يا من يحاول ان يجدّد جنسنا ما المرء الا حزمةُ العاداتِ

ان كل من يبحث عن الشؤون العلمية والغرائب الطبيعية ولو كان كلامه في المعارف الشديدة التعلق به كاللغة والتاريخ وما شاكل يتكلم في كل ذلك عن غيره واما مَن يبحث عن العادات والاخلاق وما يصدر عنهما ويعزى اليهما فانما يبحث عن نفسه ويكشف مكامن علم السلوك التي تظهر بمظهرَيِ العادة والطبع فليس اذن من كلام الذّ في الاسماع وادنى الى الطباع من هذا البحث الذي له من الخطارة ما لا تظهره المقالات الكثيرة بل المجلدات الكبيرة ولكنَّ الانسان مفطور على حب التطالّ لكشف الشؤون وربما شفى غليله لمحة قليلة مما يريد استجلاءهُ فالموضوع جليل والخاطر كليل والعذر عند كرام الناس مقبول

فما حسنٌ ان يعذر المرء نفسهُ وليس لهُ من سائر الناس عاذرُ

فالشبيبة اشبه بكتلة من طين في يدي خزّافٍ يشكلها كما يريد او كقطعة من المطاط (الكاوتشو) تتنوَّع اشكالها بحسب القوالب

التي توضع فيها فتنطبع على كل منهما النقوش ويؤثر بهما الصقل والتحسين ولكنهما اذا جمدتا يعسر تغييرهما . والحدث في مقتبل عمره كالحية التي تسلخ شرنقتها كل سنة على امل ان تكتسي ما هو اجود وتجدد ما هو افيد ولكن بينكم ايها الطلبة الادباء وبينها فرقاً اذ اننا نسعى بان نلبسكم احسن ثوب من الاخلاق الكريمة لا يجب نزعه بل يحافظ عليه الى ان يخلع الجسم لباس النفس اطال الله اعماركم

والشبيبة هي الوقت الذي تزرع فيه بذور الاخلاق والعادات الحميدة وتسقى بماء السعي وتقوى بمركب كيماوي من العناية فتستحصد وتثمر اثماراً وافرة تملأ أهراء المناصب الرفيعة في المجتمع الانساني وفي ذلك اعلاء منار الوطن بل تلك هي الغاية التي تترامى اليها مقاصدنا وتتعلق بها آمالنا وتطمح اليها امانينا وتبذل فيها مساعينا وكفى بها من غاية تستلفت ابصاركم الى اجلالها وتستوقف قلوبكم على احترامها وتقيد افكاركم بسلاسلها وتحمل كلاً منكم ان ينشد رفيقه

وما ابقت لك الايام عذراً   وبالايام يتعظ اللبيبُ

فلو لم يكن لهذه المدرسة الشرقية الزاهرة الا جمعكم في حلقة مجتمع عليّ كهذا يدني لكم قطوف الفوائد ويضع لكم غايتكم المحمودة

على حبل الذراع لتتناولوها بدون عناء لكفاها مأثرة وكفاكم فائدة وكفانا اقراراً بفضلها

ولما كان التهذيب يدور على محور الاخلاق والعادات مستأصلاً السيء منها وغارساً الحسن وجب ان اخوض امامكم في بحر البحث عنهما الى ان أعدّ لكم سفينة لا تخشى الغرق مرساتها الامل الوطيد وسكّانها (دفتها) العزم الكامل و بحارها الارادة وربانها الدراية وركابها شبان تخلقوا بافضل الطباع ودرجوا على اشرف العادات فتصل بكم ان شاء الله الى مرفإ السعادة والاقبال فلا يستطيع احد ان يخدش آذانكم بقول ابي العتاهية

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجري على اليَبَسِ

ومعلوم ان الفلسفة لعهدنا اربعة اقسام اولها العلوم النفسية او البسيكولوجيا وثانيها المنطق وثالثها علم الآداب ورابعها علم ما وراء الطبيعة وقد قسمها الاولون الى فلسفة عملية وفلسفة نظرية وفرّعوا من العملية قسماً سموه تهذيب الاخلاق او الفلسفة الادبية وهذا الفن الذي يقصد به التحلّي بالفضائل والتخلّي عن الرذائل او بعبارة اخرى تقويم الاخلاق والعادات فقسمت الكلام عنه الى ستة اقسام متخذاً اياه موضوعاً لكلامي وهو

١ً — ما هي العادات والاخلاق

٢ً — هل تتفق العادات والاخلاق

٣ً — هل تختلف العادات والاخلاق

٤ً — هل يمكن التعليل عن الاختلاف والاتفاق

٥ً — هل يستدل على الاخلاق والعادات

٦ً — هل نقوّم وما هي افضل واسطة لذلك

وسابحث في كل منها على حدة فابسطوا آذانكم الى كل ما يتلى عليكم منها ولا تلبسوها له فتلتبس عليكم الحقائق واعلموا ان الصناعة طويلة والعمر قصير والمباحث كثيرة والوقت ثمين والله يهديكم سواء السبيل • ويسبغ عليكم الخير الجزيل

١ً — ما هي العادات والاخلاق

عادةُ الانسان سلطانٌ علا   مطلق الحكم على الطبع اعتلى

وقواه كجنودٍ بسُل   خدمته وبها نال العلى

ارعوني السمع الآن لأحدّد لكم العادات والاخلاق واثبت لكم بالبراهين الدامغة والادلة المحسوسة ان الاخلاق ليست الاّ مجموع عادات حسّن الله اخلاقكم وقوّم عاداتكم

قال العلاَّمة الجرجاني : العادة هي ما استمر الناس عليه على حكم المعقول وعادوا اليه مرة بعد اخرى وزاد بعض علماء العصر المدققين في هذا الحدّ ما يغني عن اطالة الشرح فقال : ليست العادة الا ملكة مكتسبة صادرة عن انفعال الدماغ بالأثر الذي حدث فيه من تكرار العمل واشتقاقها من العَوْد اي الرجوع لان من اعتاد امراً يرجع اليه مرة بعد أُخرى . ومن اسمائها في اللغة الانكليزية Customs و يراد بها العادات العامّة اما Hobits بمعنى العادات الخاصّة فاصلها عندهم من اللاتينية ومعناها التمسك ونحوه . ومن مرادفاتها في العربية الديدن والدأب

هذا ولما كان التكرار يؤثر بالمجموع العصبي صار تكرار الشيء عادة بذلك التأثير فاذا تمكّنت العادة صارت خُلقاً ولذلك قالوا العادة خامس طبيعة اي انه كما ان الكون محتاج الى الطبائع الاربع التي هي في عرف المتقدمين الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ولا ينفك عنها احتاج الانسان الى العادة ولم يستطع انفكاكاً عنها فكانت خامسة تلك الطبائع وقد قيل في امثال العامة لعهدنا العادة في البدن لا يغيّرها الاّ الكفن وكل شيء عادة حتى العبادة . وتغيير العوائد صعب . وكل بلاد لها زي وكل شجرة لها فيّ . و يامعوّد لا تبالي الخ . وقال ارسطو الفيلسوف اليوناني للعادة

على كل احد سلطان وقالت العرب العادة املك من الادب·
وعادة السوء شرّ من المغرم· وقال الفرزدق :

وأنت امروءٌ عوّدت للمجد عادةً وهل فاعلٌ الاّ بما يتعوّدُ

هذه هي العادة القوة الفاتكة فبحياتكم قولوا لي هل دام مجد
الاسكندر ونابوليون وغيرهما كما دامت مملكة العادة التي نراها
تزداد فتكاً بالبشرية منذ درج الانسان الاول حتى الساعة والى
مقتبل الزمان

هذه العادة مملكة لم تحتج الى الشرائع وعقد المحاكم والمجالس
والموءتمرات لصيانة حقوقها بل استقلت بنفسها مطلقة الحكم على
كل احد وقيدت العقول وغلّت الايدي باحكامها ولن تزال
مملكتها تتسع في الخافقين

بل هذه العادة التي برزت للعقل باديء ذي بدء فظنها الهاً
كما ظن الاولون ان الشمس وحدها علة الوجود فألّهوها وشادوا
لها الهيا كل الشامخة وقدموا لها الضحايا البشرية واراقوا الدماء
اعتباطاً· ولربما تقشعر ابدانكم من ذكر القرابين الآدمية وترتعد
فرائصكم من سفك الدماء على مذبح الجهل مع ان كلاً منا يسفك
دمه لا دمَ غيره لصنم العادة فيفني جسمه وهو يظن انه يقويه
فيكون اشبه بالهر الذي لحس المِبْرد فظن أنه ادماه فداب في عمله

حتى فني لسانه ومات

تلك هي سلطة العادات وهذا تأثير سيئها ومن علم ان الهنود وغيرهم يجرعون السمّ حتى يألفوه وان الولد الذي اعتاد ان ينهض العجل حتى اذا كبر كان يقوى على رفعه وهو ثور وعدم تمكن الحَكَم الذي أحضر عند مناظرة سيبويه والكسائيّ من لفظ المثل المُنَاظَر فيه غلطاً واكتشاف التميميّ بعد هربه لانه قال (ما قتل المحب حرام) باهمال ما · اكد تنفيذ احكام هذه القوة

وكل من اعتاد تناول المسكرات والمخدّرات ونحوها راى بنفسه عدم انفكاكه عمّا اعتاده ومثلكم ايها الاعزاء معرّض لاقتباس كل عادة على علاتها فانذركم ان من شعر بتسلط عادة عليه ورأى بنفسه او سمع من الآخرين انها موءذية وسيئه فليدعها وشانها قبل ان تمكن براثنها منه وتخدش آدابه بمخالبها

ومن العجب اننا نشكو جور البعض ونظهر قبحهم ونتأفف من مضارهم وربما كان ذلك وهماً ولا نشكو جور العادة التي نرى باعيننا ونسمع باذاننا ونشعر بانفسنا انها موذية · فاياكم وتسلط سيّء العادات عليكم اذ لا تستطيعون ان تنجوا من مخالبها او تحلوا من ربقتها بل لا ينقذكم منها نصير ولا ينفعكم لوم ولا يداويكم طبيب ولاسيما اذا كانت فاتكة بقواكم الجسدية فانها تتطرّق الى قواكم

العقلية ايضاً فتعبث براحتكم كيف لا وقد قيل العقل السليم في الجسم السليم واخشوا من تمليقها لان ما فيها من ارتياح النفس اليه وقتيّ ولكن ما تتركه من المضارّ يرافق الانسان سحابة العمر فتكون اشبه بالسمّ المدسوس في الدسم فلا يلعق منه الذائق شيئاً حتى يلعق اصبعهُ فيموت

والعادة تتمكن بالتدريج فلذلك يصعب اقتلاعها دفعة واحدة فيجب قطعها تدريجاً كما تمكنت · ويكثر في المدارس اقتباس كثير منها لاختلاف طباع الطلبة واعمارهم وامكنتهم وقبول عقولهم لتأثيرها وازدحامهم فيها فكانت هي المطالبة باقتلاعها والسهر على استئصال شأفتها

ولم تقتصر العادة على الانسان رئيس الممالك الطبيعية الثلاث اي الجمادية والنباتية والحيوانية بل كرّت بجيوشها على تلك الممالك فاستعبدتها واذلتها كيف لا ونرى كثيراً من الحجارة التي حجبت عن انوار الشمس في ظلمة الارض تتفتت عند رشقها بسهام النور · وبعض النبات يستنبت في الاقاليم الحارة كالنخل ولا يستنبت في الباردة كما ان البقل الذي اعتاد ان يلبس من الثلج سربالاً ومن الصقيع عقوداً لا يحتمل حمارّة القيظ في الاقاليم الحارّة واظهر من هذا ان عادة الاعتناء الكثير ميزت النباتات الى نوعين يعرفان

بالبرّي والجوّي كالاجّاص وغيره الذي يحتاج بريّهُ الى ان يؤبر (يطعَّم) ليكتسب خواصَّ صِنوه الجوّي

اما الحيوان فتاثيرها فيه ظاهر من نوادره الكثيرة حتى قيل ان فيلاً كان يُستخدم في بعض الاعمال سحابة الاسبوع و يستريح يوم الاحد فاعتاد ان لايخرج من مربطه في مثل ذلك اليوم فضلاً عما يظهر من تأثيرها في كثير من الحيوانات والاطيار والحشرات ونحوها التي اذا شعرت بقرب المطر دلَّت عليه بحركاتها او سكناتها فكانت اشبه بميزان الثقل (البارومتر) ومَن منا لا يرى تاثيرها الدواجن والاوابد وفي الجمل الذي سمي مركب بحر الرمال والوعل الذي دُعي بجمل صحراء الثلوج الى غير ذلك مما لايحصى

اما الخُلق فما هو الا ابن العادة وسليل ارومتها وهو في عُرف الحكماء عبارة عن هيئة للنفس راسخة تُصدِر الافعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر ورويَّة حتى ان غضب الحليم لايعد خلقاً لانه غيرُ راسخ ومِثلهُ كرمِ البخيل.وهو مشتق من الخَلق اي الإبداع ومن مرادفاته السجيَّة وهي من معنى السكون كانها ملكة ثابتة في النفس·والسليقة بمعنى الارتفاع لانها ترفع صاحبها·والجبلَّة من جبِل اي خُلق·والدسيعة من دسع الشيء اي دفعه كانها تدفع الانسان اما الى خير واما الى شرّ·

والسجيحة من السهولة · والخيم ولعلها من خام اي جبن دلالة
على ان الحياء من كرم الطباع او من الخيمة لانها تظلل صاحبها·
والنحيتة من النحت اي القطع والنسيسة من الزجر او المضاء·
والنُّعي ولعلها من الرائحة التي تنم اي تفوح · والطينة من الخلقة
والضريبة من المشابهة والنحيزة بمعنى الطبيعة ومنها النقيبة والشيمة
والشنشنة والتوس الخ · اما الغريزة فتفترق عن الخُلُق بانها لايدخل
فيها الاعتياد والخلق يدخل فيه ذلك

ومن اسمائه في الانكليزية (Nature) وهي لاتينية بمعنى
الوجود و (Character) لاتينية ايضاً بمعنى النحت الى غير ذلك
مما يدل جماعه على ان اهم معاني الطبع من الوجود والتجربة ومن
عادة الانكليز انهم يفتخرون بتأنيهم و يصفون من كان كذلك
بقولهم (Cool) ذهاباً الى ثبات جأشه وهي من (Cold) بمعنى البرد

قال ارسطو الفيلسوف كل شيء يستطاع نقله الا الطباع
فعقده المتنبي بقوله :

يُراد من القلب نسيانكم   وتأبى الطباع على الناقلِ

وقالت العرب : ان الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخَلّ
العسل · وقالت العرب والعجم : الطبع املك · وقالت الحكماء من
تطبّع بغير طباعه ردّته العادة الى طبعه كالماء اذا سخنته على النار

وتركته عاد الى طبعه من البرودة وقال الشاعر :

اذا رام التخلّق جاذبتهُ خلائقهُ الى الطبع القديمِ

وقيل في امثال العامّة الطبع غلب التطبّع . ومن حكمهم سئل الغراب لماذا تسرق الصابون فقال الأذى طبع

ومما يؤيد ذلك ان ملكاً استوزر رجلاً حصيفاً كان يعتمد على رأيه فلما توفي وخلفه ولده في الملك ابعده فاشار اليه بعض خاصته بادنائه فاتفق معهم انه يمتحنه ليرى مقدار عقله فامر به فحضر فساله ايٌّ اغلب على المرء الادب او الطبع فقال الوزير الطبع اغلب لانه اصل وذاك فرع وكل فرع لابد ان يرجع الى اصله فلم يرق الجواب للملك. فدعا بطعامه فوضعت المائدة ثم اقبلت سنانير بايديها شموع فاحاطت بالمائدة حامله تلك الانوار فالتفت حينئذ الملك الى الوزير وقال له اعتبر خطاءك متى كان ابو هذه السنانير خادماً . فقال له الوزير ليمهلني الملك في الجواب الى الليلة المقبلة فقال ذلك اليك فخرج الوزير واعدّ فارةً طرحها في كمه وحضر في العشية فقدم الطعام واقبلت السنانير بالشمع فحلّ الوزير تلك الفأرة والقاها بينهنّ فاستبقت السنانير اليها ورمت بالشمع في كل مكان حتى كاد لسان اللهيب يندلع في ذلك المحل فالتفت الوزير الى الملك وقال هذا هو الجواب فعرف حصافته

وادناهُ منه

وامثال هذه كثيرة منها ان صيادًا ربي جرو نمر حتى دجن و بينما كان يومًا يلحس يده كاد يقطعها و يلتهمها لانه عاد الى طبعه ومنها ان فلاّحًا اخذ حية ووضعها في صدره ليدفئها فلدغتهُ ومات

واشهر من هذا كله ان اعرابيًا ربي جرو ذئب بلبن شاة فلما قوي افترسها فقال يخاطبه

بقرت شويهتي وفجعت قلبي ... وانت لشاتنا ولدٌ ربيبُ
غذيتَ بدرّها وربيت فينا ... فمن انباك ان اباك ذيبُ
اذا كان الطباع طباع سوء ... فلا لبنٌ يفيد ولا حليبُ

هذه بعض ادلة لا اظنكم تستزيدونني غيرها لتتاكدوا غلبة الطبع وتقولوا معي

فالمرء يمحو بحثه ... ما زخرفت ايدي التصنعْ
فاذا تمكن طبعهُ ... فالطبع قد غلب التطبعْ

٣ً هل تختلف العادات والاخلاق

تقدم ان العادة امُ الذوق والطبع ولدتهما طفلين وارضعتهما

في المهد الى ان نشأا في حجرها وترعرعا على يدها نخلعا التمائم ورافقتهما حتى ملكا مثلها على حد قول امامنا اليازجي رحمه الله

والهوى في القلوب شرط فان لم يكُ بالمشتهى فبالمكروهِ
كلنا يبتغي من العيش ضرباً وسرورُ الفتى بما يبتغيهِ
انما نحن في اختلاف عقولٍ مثلما نحن في اختلاف وجوهِ
ربما طاب للفتى ما كرهنا وهو منا وعاف ما نشتهيه
لو تساوى المذاق لم يكُ في الدنيا خسيسٌ ولم تقم بالنبيهِ

فلذلك ينسب اختلاف العادات الى وجوه التربية وطرق التقليد والاستعداد الفطري وما يتصل بمثل هذه الفواعل حتى ان ما كان من العادات حسناً عند قوم رآه الآخرون سيئاً ذلك ما حمل الصينيين على اجلال ضخامة الجسم واتخاذها دليلاً على سعة العقل وتصغير الاقدام حتى ضغطوها بالاحذية فشوَّهوها وهم يزعمون انهم يجملّونها . وحبّب الى بعض القبائل صغر الرؤوس فغيروا وضعها الطبيعي وهذا من العادات التي تنافي الذوق فقط ولا تضر بالصحة غالباً ومنها ما يؤْذي وان حسن في الذوق كشدّ صدور النساء بالمشدّ (الكورسه) وضغط صدور الرجال بالمكويّ ونحوه ومنها ما ينافي الذوق والصحة كالدخول الى غرفة المريض المدنف ولا سيما اذا كان مرضه ينتقل بالعدوى كالسلّ ونحوه .

ومنها ما تنفر منه الانسانية كالكتابة على راس الآدمي بعد حلق شعره وارساله لتقرأ الكتابة ويقطع راسه

واليكم الآن اهم ما اختلفت به العادات · فالهنود يأكلون الجراد والصينيون الفيران ولحوم الكلاب ودود الحرير بعد موته في الفيلجة ومن اغرب عاداتهم ان ما يقطع من الجسم يجب ان يحفظ حتى يدفن مع الجثة بعد موتها حتى ان امرأة كان لها ولد وحيد يمرَض في مستشفى فقطع الاطباء فخذه ودفنوه فلما جاءت وعلمت ذلك بلغ منها الغيظ ان سممت ولدها فاماتته ولم تُمت عادتها وهم يعظمون من طال ظفر خنصره· ويُعدّ كل منهم إرانًا (تابوتًا) في حياته ليدفن فيه بعد موته ويكون من خشب الارز غالبًا وقد اشتهر إران لي هنغ تشنغ وزيرهم الشهير المتوفى حديثًا انه طاف معه في اوربا حتى اذا مات يوضع فيه ويعاد الى بلاده ولما سار لحضور حفلة تتويج جلالة امبراطور روسيا نقولا الثاني منذ بضع سنوات ارسل الإران بطريق اخرى حتى لا يجتمع الفرح والكدر بوقت واحد ولم يلبث ان التقى به· واليابانيون يصبغ نساؤهم اسنانهنّ ويحملون الاسرى اذا اطلقوا سراحهم عظام قتلاهم اعتقاد انهم في قبضتهم كالاحياء · ويغرسون للولد عند ولادته شجرة حتى اذا شبَّ وتزوّج قطعوها واتخذوا منها قطعة

تحفظ بين رياش البيت تذكاراً · وبعض زنوج هايتي يأكلون اللحوم البشرية ويعبدون الافاعي مقدمين لها القرابين · والافريقيون لا ينظرون الى قتيلهم وقت الحرب خشية ان يجذبهم ملكه مثله فيموتون · والعرب كانوا يئدون البنات اي يدفنونهنَّ في الحياة تخلصاً من العار

ولكن اختلاف عادات الشرقيين والغربيين هو اشبه باختلاف موقع القارتين ألا نرى ان بعض الغربيين يفتخرون بنزع الشعر من وجوههم ونحن بارساله · ونحن نشرب التبغ بلفيفة او نارجيلة وهم يمضغون بالفم ونحن نشرب الماء الزلال وهم انواع المسكرات كالجعة وغيرها · ونحن في محل شروق الشمس وهم في مغيبها · نكتب من اليمين الى اليسار وهم من اليسار الى اليمين · نأكل لحوم الحيوانات المذبوحة وهم لحوم المقتولة · حروف لغاتنا كبيرة مجموعة وحروفهم صغيرة متفرقة · نفضّل اكبر اولادنا وهم الاصغر · ندفئ الراس وهم يدفئون الرجلين · نحيّي برفع اليد الى الراس وهم برفع القبعة عنهُ يأكل البدو باصابعهم عندنا وهم بالمشاك (الشوكات) · نكرّم والدينا كثيراً فلا نبدي حركة غير لائقة امامهم ونبالغ بذلك حتى لا ندخن بين ايديهم وهم يساوونهم · لا نحب الاسفار غالباً الا للكسب وهم لترويض النفس

النهار في بلادنا هو ليل في بعض بلدانهم · نشد اطفالنا بالاقمطة وهم يتركونهم بدون رباط · خبزنا رقيق وخبزهم غليظ · اثوابنا واسعة واثوابهم ضيقة · نخلع احذيتنا عند الدخول الى محل وهم يرفعون قبعاتهم · نستقبل الضيوف بكل وقت · وهم يستثقلون قدوم الضيف بدون دعوة · نسرّ بولادة ذكرٍ وهم بولادة انثى · نتطيَّر من البوم وهم يتفاءلون به · نقيس الابعاد بالساعات وهم بالاميال وكثيراً ما يعبّرون عن المسافة باجرة النقل فيها فيقولون مثلاً بين هذه المدينة وتلك ريال واحد · نزعم ان عد النجوم يخرج الثآليل في الكف وهم يداوون الثآليل بمسحها في ضوء القمر والنجوم · ما نطرب نحن له من الالحان الموسيقية والاغاني لا يؤثر فيهم طرباً وما يستحسنونه منها لا نستحسنه نحن

واغرب من هذا اختلاف اللغات وفنونها فان بعض ما نذكّره نحن يؤنثونه وبالعكس نقدم المنعوت على النعت وهم يخالفوننا احياناً · عندنا صيغة واحدة للماضي وللانكليز اربع وللفرنسيس خمس · لغاتنا لا تحتاج الى الفعل المساعد ولغاتهم لا تقوم بدونه · فضلاً عن انهم يخالفوننا في كثير من طرق البيان · فلا يحبون تشبيه الوجه بالبدر او الشمس ونحن ننكر قولهم رقصت السحابة حول القمر · وننكر قول ايرفن الامركي (ان كتبه كلها آذان كلاب)

كناية عن طي اطرافها عند المطالعة · وقول هيكو الافرنسي ان الجيوش المتموجة شبيهة بكوم من الشوك ذات حياة) كما ينكرون قولنا فلان كالبحر في الكرم والاسد في الشجاعة الى غير ذلك مما ينسب الى اختلاف اروميتي اللغات فإن اللغات الشرقية كالعربية واخواتها فرع اللغة السامية ولغات اوربا وامركا فروع الآرية

ومن الغريب ان العادات لا تقتصر على مثل ذلك بل تتعدّى الى ما يقضي بالعجب العجاب لان لعظام الرجال منها ما تكاد تعدُّهُ صبيانياً فان الدكتور جنسن الانكليزي من كبار كتابهم المتأخرين كان قد اعتاد عند مروره في اسواق لندن أن يجسَّ كل عَلَمٍ من أعلام الطريق فاذا اغفل احدها مرة عاد اليه فجسه وكان هيدن المؤلف الالماني لايستطيع ان يكتب الا وهو مزين بحلاه واكسيته والمصوّر فوكير لا يستطيع الرسم حتى يتقلَّد حسامه وكاستي الشاعر الايطالي لاينظم بيتاً حتى يضطجع على سريره ويلعب بالورق وحده وملتون الشاعر الانكليزي لا ينظم حتى يلبس ثوباً من الصوف واللورد سالسبوري الانكليزي لا يخطب حتى يسند يده الى شيء واميل زولا الكاتب الافرنسي لا تجود قريحته الا على ضوء الشمعة ولو كانت الشمس في كبد السماء والحريري صاحب المقامات المشهورة ينتف لحيته عند الفكرة

وعلامتنا اليازجي رحمه الله يكتب وينظم وهو يشرب الدخان والقهوة والرياضي اسعد افندي الشدودي اذا عسرت عليه مسألة اكبَّ على رأسه فحلّها

اما العادات الخرافية فكثيرة منها ما زعم الهنود أن الدر هو دموع الملائكة تسقط من السما في اصداف البحر وهو قريب من قول العرب الاولين انها الندى الذي يسقط في المحارة فيصير لؤلؤًا واهل باكين يموتون بردًا ولا يستخرجون الفحم الحجري على كثرته عندهم خشية ان تقلق الارض من استخراجه فتنخسف بهم والصينيون عمومًا يضرمون عند انفصال روح الميت نارًا ليتكاثف دخانها ويحمل تلك الروح الى السماء ومن عادات العرب الاقدمين عند قلة المطر أن يجمعوا ما جفَّ من النبات ويعلقوهُ بأذناب البقر ويصعدوا به الى جبل فيضرمون النار بها طلبًا للاستسقاء وهو شبيه بما يتخذه عامتنا في بعض الجهات عند قلة المطر من خشبة عليها ثياب يسمونها أمّ الغيض يطوفون بها منشدين الاناشيد طلبًا لاستنزال المطر

والمتمدنون لعهدنا عندهم منها شيءٌ فالانكليز يعتقدون بالحجارة الكريمة اعتقادات غريبة مثل ان من حمل الياقوت اتقى الرثية (الروماتزم) · والامركان يعتبرون ايام الاسبوع

وتأثيرها في الاعمال · والفرنسيون يتطيرون من رقم ١٣ حتى اذا طفت باريس لا تراه على محل · واهل نابولي في ايطاليا يلبسون تمائم المرجان وقاية من عين الحسود · والالمان يتشاءمون من صوت الصرصور · والهولنديون لا يستخدمون خادماً يوم الجمعة والبرتغاليون يوشحون سفنهم بالسواد في هذا اليوم · والدنمركيون يقولون بتأثير اوجه القمر على الولادة · والاسبانيون يؤكدون وجود الذهب حيثما يبني العنكبوت نسيجه

هذا شيء من اختلاف العادات اما اختلاف الاخلاق فهو كثير ايضاً قال افلاطون لما كان يدرّس تلامذته ان سقراط يحتاج الى لجام لتوقد ذهنه · وزينوكراتس الى منخاس لخموله · وكان الرومانيون يحبون الشراسة ويتخلقون بها مما حملهم على شهود مبارزة الاسد والحيوانات الضارية ترويحاً للنفس · واليونانيون يحبون الرقة والدماثة ولذلك اشتهروا بالروايات التمثيلية والفنون الجميلة كالشعر والموسيقى مما يدل على لين العواطف ودماثة الاخلاق · واظهر مثال يبين الطباع ما جرى للشيخ وولده لما قادا حمارا في الطريق فحملهما القوم على ان يتعاقبا ثم ركبا كلاهما ثم حملا الحمار على عمود فسقطا في النهر وقطعت جهيزة قول كل خطيب وكل يفتخر باخلاقه فالانكليز معجبون بتأنيهم وثباتهم

والفرنسيس بحدَّتهم وسرعتهم حتى ان احدهما يعير الاخر بطباعه وحكي ان افرنسياً التقى بانكليزي في ممر ضيق لا يسع الا واحداً فلم يشأ كل منهما ان يعود القهقرى ليمرّ رفيقه فوقفا برهة ينظر كل منهما الى الاخر شزراً فملَّ الافرنسي الانتظار لحدته فاخذ جريدة وشرع يطالعها فلم يتمالك الانكليزي ان دنا منه وقال له متى طالعتها ارجو منك ان تطلعني عليها فكاد الافرنسي يتمزق غيظاً من تأنيه. واعجب من هذا ان مسافرين انكليزي وافرنسي بللهما المطر فعاجا بمحل اوقدا فيه النار ليصطليا فعلقت النار بثوب الافرنسي والانكليزي ينظر اليه صامتاً ولم تلبث ان طارت شرارة فعلقت بثوب الانكليزي ايضاً فما لمح رفيقه ذلك حتى صاح من فوره (النار النار) فضحك الانكليزي حتى كاد يستلقي وقال له ان لي مدة ارى النار في ثوبك ولم اضطرب بالاً فما اقلقك

واهل العاقورة وقرطبة في لبنان جاران ليس بين قريتيهما اكثر من نصف ساعة فاذا سألت العاقوري عن ولادته عينها بمواقع حربية واذا سالت القرطباوي اجاب معيناً ذلك بحوادث دينية اي ان الاول يقول مثلاً ولدت يوم حرب سانور او قبل نهب الجبة والثاني يوم موت سيدنا البطريرك فلان او يوم سيامة سيدنا المطران وما شا كل

ومن اعجب ما يدل على فلسفة الطباع ما ذكرته احدى الجرائد مرة وهو ان الانسان في العاشرة من سنيه يعتقد ان اباه كثير المعرفة فاذا بلغ الخامسة عشرة رأى نفسه يعرف كابيه واذا بلغ العشرين رأى انه يعرف ضعفيْ معرفة ابيه واذا صار في الثلاثين رأى ان اباه يجب ان يستشيره في كل شيء فاذا وصل الى الاربعين ابتدأ يعتقد ان اباه يعرف شيئاً ومتى بلغ الخمسين اخذ يستشير اباه ويعتمد على آرائه فاذا بلغ الستين ومات ابوه اعتقد ان اباه كان انبهَ من عاش على سطح المعمور فتأمل

---

٣ = هل تتفق العادات والاخلاق

للبعض عادات تخالف غيرها مثل اختلاف الناس في الاخلاق ولربما وجد التوافق باحثٌ ان الخلاف يعدُّ دون وفاقٍ ان اتفاق الامم على اختلاف امكنتهم وازمنتهم هو اغرب من الاختلاف وادلُّ على رسوخ العادات او تناقلها بالتقليد فتوءثر بهذه القبيلة تأثيرها بتلك ومن غريب ما يظهر للباحث في هذا الموضوع ان العرب في ايامهم الاولى وما بعدها كثيراً ما يتفقون

مع الافرنج لعهدنا بكثير من العادات مثل الاستئذان قبل المقابلة بدق الباب ونحوه فللعرب افعال قديمة منها دَمَرَ ودمق اذا دخل بدون استئذان ومنها الكشف عن الراس عند التحية للتعظيم قال الشاعر:

ولما اتانا بُعيد الكرى خضعنا له ورفعنا العمارا

والعمارة لباس للراس وفي البيت ايضاً اشارة الى الخضوع وكالانحناء عند التسليم وكان هذا عادة الغساسنة وغيرهم من قبائل العرب . ومنها التعارف قال الحسن (رضه) مجالسة الرجل من غير ان يسال عن اسمه واسم ابيه مجالسة الحمقى وقال شبيب ابن شيبة لابي جعفر لما لقيه في الطواف وهو لايعرفه (اصلحك الله انني احب المعرفة واجلُّك عن المسألة) فقال له انا فلان بن فلان . ومنها اهداء الرياحين في الاعياد قال النابغة

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيُّون بالريحان يوم السباسبِ

ومنها اقامة تماثيل للمشاهير كيعوق صنم لكنانة كان من اهل الفضل فاقاموا له تمثالاً بعد موته ليحيوا ذكره بينهم وفعلوا مثل ذلك بسبعة من بعده حتى تمادوا واتخذوا تلك التماثيل اصناماً وعبدوها . ومنها ارسال ذيول النساء في الحفلات قال الشنفرى :

ترود الاراوي الصحم حولي كانها عذارى عليهنَّ الملاء المذيَّلُ

ومنها لبس النساء الثياب الثمينة قال المنخّل اليشكري :

الكاعب الحسناء ترفل بالدمقس وبالحريرِ

ولبس الثياب الموشاة بالذهب قال سلمى بن ربيعة

والبيض يرفلن كالدمى في الريط والمذهب المصونِ

ومنها اعطاء العروس البائنة (الدوطة) سئل اعرابي ما بال الحب اليوم غير ما كان عليه قبل اليوم فاجاب كان الحب في القلب فانتقل الى المعدة ان اطعمته شيئاً احبها والاَّ فلا

ومنها الحداد باللون الابيض اتخذه عرب الاندلس وقال الشاعر :

يقولون البياض لباس حزن باندلسٍ فقلت من الصوابِ
ألم ترني لبست بياض شيبي لاني قد حزنتُ على الشباب

وهو اليوم من عادة الانكليز اذ يضعون شرائط بيضاء على قبعاتهم عند موت الاصاغر والاعزاب

وكان لون الحداد عند الرومان في زمن الجمهورية ازرق وكذلك عند العرب قال الشاعر :

يا سالباً قمر السماء جمالهُ البستني للحزن ثوب سمائهِ

وكان اللون الاسود الشائع اليوم عند الاوربيين واكثر الشرقيين للحداد ايضاً قال شاعرهم :

استشعر الكتّاب فقدك سالفاً وقضت بصحة ذلك الايامُ
فلذاك سوّدت الصحائف وجهها حزناً عليك وشقّت الاقلامُ

وكانت العرب تتقنع بالنقاب كتقنُّع الافرنج بالقوال قال النابغة:

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولتهُ واتقتنا باليدِ

ومما يدل انه كان عندهم ذا خروب قول المثقّب العبدي :

ظهرن بكلّةٍ وسدلن أُخرى وثقبن الوصاوص للعيونِ

وكانت العرب تقيم اسواقاً للبيع والشراء تفاخراً بعملها كسوق عكاظ ونحوها وهي اشبه بمعارض الافرنج لعهدنا وان لم تصل الى منزلتها من الاتقان. وعقدوا الجمعيات لمناشدة الاشعار والمذاكرة بآداب لغتهم وانتقاد ما فيه من مغمز كما جرى للخنساء مع حسان ابن ثابت وذلك اشبه بالجمعيات العلمية اليوم بل اشبه بما جرى لكورنيل لما انتقدوا قصيدته بايعاز ريشليو تحاملاً وتشفياً

وكانت نساء العرب الفاضلات يتزينّ بالاسورة ولذلك قال حاتم الطائي لما لطمته العنزية (لو ذات سوار لطمتني) . والسوار اليوم من حلى الافرنج وكان اولئك يقامرون والمقامرة اليوم من ضربات التمدن التي تستنزف الاموال وتضرُّ بالاداب وتفتك بالصحة ورحم الله القائل :

نصيب النازلين بها سهادٌ فافلاسٌ فيأسٌ فانتحارُ

وكانت مدة الحداد سنة كاملة عندهم كما هي عند الافرنج اليوم قال لبيد :

الى الحول ثم اسم السلام عليكما

ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ

وعرف العرب السباق على الخيل المضمَّرة والعدو وتراهنوا عليها وهما اليوم من مراهنات الافرنج

وكانت العرب تضع الستور اي البردايات في زمن السلطان المنصور الحسنيّ وتعرف عندهم بالحائطيّ قال بعضهم يصفها:

وجررت ذيلي بالمجرة عابثاً فخراً بمخترعي ابي العبّاس

مانيط مثلي في القباب وماازدهت بفتى سواهُ مراتب وكراسي

ومن اعجب ذلك الاتفاق في المعاني فان العتابي الشاعر العربي قال

ما زلت في غمرات الموت منطرحاً

يضيق عني وسيع الرأي من حيلي

فلم تزل دائباً تسعى بلطفك لي

حتى سللت حياتي من يدي اجلي

وقال جان جاك روسو الفرنسي ما عرّبه الشاعر العصري حافظ افندي ابرهيم المصري بقوله

يا ايها الحب امتزج بالحشى فان في الحب حياة النفوس
واسلل حياتي من يمين الردى اوشك يدعوها ظلام الرموس

وقال المعري العربي

فاطمعنَ في اشباههنَّ سواقطاً على الماء حتى كدنَ يلقطنَ بالبدِ
فمدَّت الى مثل السماء رقابها وعبَّت قليلاً بين نسر وفرقدِ

وقال ملتون الانكليزي الشهير مما عربه صاحبا المقتطف العالمان الفاضلان وهما حكاية رؤية حنة لصورتها في الماء

جرى الى السهل ماء الكهف فانبسطت مرآته فبدت مثل السماواتِ
فقمت ارقبها اذ قام يرقبني شخص من الماء مثلي في الاشاراتِ

وقال المتنبي عاقداً قول مجنون ليلى

فشغلت عن رد السلا م فكان شغلي عنك بك

والافرنسيون يطنبون بمعنى لفولتر مثل هذا يعدُّونه من عجائب التصوُّرات

وقال عنترة العبسي

والهام تدرج في الصعيد كأنما تلقي السيوف بها رؤوس الحنظلِ

وقال اوميروس بطل الشعراء في جندي أُصيب بطعنة في راسه اماتته وعربه العالم الفاضل سليمان افندي البستاني

فرأس الفتى لما بمحنته مُني بمغفره المسرود أُثقل ينثني

كزهرة خشخاش بيانع روضة يثقلها طلُّ الربيع فتنحني

وقال عنترة

سلي يا ابنة الاعمام عني وقد اتت قبائل كلب مع غني وعامرِ

تموج كموج البحر تحت غمامةٍ قد انسجت من وقع ضرب الحوافر

وقال اوميروس

تدفقت الاغريق ايَّ تدفقٍ الى الحرب تجري فيلقاً اثر فيلقِ

كعجّ امواج البحار تهيجها من الريح انواء بغير ترفق

---

٩ — هل يمكن التعليل عن الاختلاف والاتفاق

تباينت الافكار والطبع غالب وللناس فيما يعشقون مذاهبُ

اختلف العلماء في التعليل عن هذا فمنهم من ذهب الى تأثير الامزجة فقال ان صاحب المزاج الدموي يكون في الغالب عديم الثبات سريع الحكم والليمفاوي يكون بطيئاً ليس بكثير التأثير والعصبي سريع التأثير والخاطر خفيف الحركة كثير الحذق والصفراوي كثير الثبات في الاراء لا يمل من العمل وقد وجدوا بالاستقراء ان اكثر مشاهير العالم على اختلاف طبقاتهم هم من هذا المزاج. والسوداوي هو اشبه بالصفراوي ولكنّ قوته العقلية

اقل من قوة ذاك

ومنهم من عزا ذلك الى الاقاليم فسكان الباردة منها ثابتو الجاش لايستخفهم الطرب ولا يستهو يهم مستهو بل هم اشبه بطبيعة منطقتهم وعكسهم سكان الحارة فانهم يميلون الى اللهو مع حدة في مزاجهم كانهم تابعون لحرارة رمالهم باخلاقهم ولكن سكان المعتدلة هم بينَ بينَ فاخلاقهم تعتدل باعتدال اقليمهم وتتغير بتغيره حتى ان من انتقل فجأة من حر الى برد و بالعكس هو متقلب الطباع

ورأى اخرون ان ذلك تابع للسلائل البشرية وان الاخلاق الفضلى هي محصورة في السلالة البيضاء او القوقافية لانها اكمل ملامح من غيرها واتم حسناً واكثر استعداداً للارتقاء ومنها نشأ عظماء العالم وهي تنحصر في العرب والافرنج والعجم واليهود والمصريين ونحوهم ودونها اخلاق السلالة الصفراء او المغولية المنحصرة في شعوب الصين والهند وما اليها من الفصائل كهنود اميركا الاصليين ولم ينشأ فيها اعظم من كنفوشيوس (كنفزة) الفيلسوف الصيني. واحط منزلة من كليهما السلالة السوداء او الزنجية المنحصرة في اواسط افريقية وجنوبي اسيا وافريقية وجزُر المحيط وهي في صفاتها اقرب الى البهائم منها الى

الانسان وزبدة الكلام ان الخُلق الحسن في الخَلق الحسن اذا روعيت ذرائع التهذيب ووفرت اسباب التمدن

ولقد امتاز كثير من رجال الفضل باخلاقهم اكثر من امتيازهم بذكائهم كالعلماء الافاضل الشيخ ناصيف اليازجي و بطرس البستاني ومن الاجانب الدكتور كرنيليوس فانديك الامركي ومن تادب بادبهم واقتفى اثرهم في دماثة الاخلاق

وربما كان التأني في بعض الاحوال مدرجة للنجاح اذ يحكى ان افرنسياً والمانياً وانكليزياً اجتمعوا في حانة فرفع الاول بيده كاساً وقال اشرب نخب فرنسا التي هي قمر الدنيا فتلاه الالماني وقال اشرب نخب المانيا التي هي شمس الكون فقال الانكليزي وانا اشرب على ذكر بريطانيا التي هي يشوع بن نون موقف الشمس والقمر وقد تكون الحدة كما حدث مرة ان انكليزياً شرع يطنب بجزيرتهِ واتساعها وان البحر لايقدر ان يزدردها وافرنسي يسمع كلامه فما اتمه حتى عارضه بقوله ان جزيرتكم ثقيلة على معدة البحر فلا يقدر ان يهضمها

هذا بشان الاخلاق اما العادات فان الصينيين لايلبسون الاثواب الضيقة كالافرنج لانها تمنعهم عن قعود الاربعاء واولئك لا يحبون هذه الجلسة فلذلك اختاروها على الواسعة هذا فضلاً

عن ان طبيعة البلاد الباردة تقضي على السكان بلبس الاكسية الضيقة كما تقضي الحارة بلبس الواسعة ولهذا نرى ان اهل البلدان الحارة يميلون الى تناول المبرّدات كالقهوة ونحوها واهل الباردة ينكبّون على تناول المسخّنات كالشاي ونحوه· والاولين يلبسون الملابس البيضاء لانها لا تجذب الحرارة كالسوداء التي توافق سكان الباردة· اما الوان الحداد فان الاسود منها اشارة الى الظلمة المشبهة الموت والازرق رمز الى لون السماء تفاؤلاً بصعود الموتى اليها والابيض علامة الطهارة رجاء ان الموتى ينتقلون الى السماء الخالدة والاصفر اشارة الى الذبول والسنجابي او الترابي اشارة الى ان اصل الانسان من التراب الى غير ذلك مما فضلته العادة والاصطلاح ولولا ذلك لما اكل بعض الدمشقيين الضفدع والسرطان (السلطعون) وكرهوا البزّاق واحب اللبنانيون هذا وكرهوا ذينك· واحب الاخرون لحم الارنب وكرهه غيرهم· ولبس العباسيون السواد والامويون البياض

ولقد جاء في لسان الحال الاغر في هذه الاثناء ان المسيو دي بارفيل سأل العلماء لماذا الفرنسيس والاسبان والايطاليان يقبضون على المشك (الشوكة) باليمين عند الاكل والالمان والسويسريون والانكليز والنروجيون يقبضون عليه باليسار

فكانت نتيجة التعليل عن ذلك ان الشعوب اللاتينية تاكل خبزاً كثيراً في اثناء الطعام وهي تتناوله باليسار فاقتضى ان يكون المشك باليمين بخلاف غيرهم ممن ذكر فانهم لايكثرون اكل الخبز واذا سأل سائل عنا نحن السوريين قلنا له اننا نترك المشك والسكين عند اكل الخبز المرقق لاحتياجه الى اليدين معاً

ومن هذا ان سطوح البيوت في البلدان الباردة مسنَّمة لان تراكم الثلوج ارشد الانسان الى اتخاذها كذلك وهي في المعتدلة والحارة مستوية اذ لا حاجة الى تسنيمها . وكشف الراس مأخوذ من خلع الجندي الخوذة عند دخوله على الملك يؤيده ان المراة لا تخلع عن راسها لانها لم تعتد لبس الخوذة ولعل هذا ما حمل القائل على قوله :

من منكمِ الملك المطاع كأنه ‎ ‎ ‎ ‎ تحت السوابغ تبَّعٌ في حميرِ

فترجل الجيش كله عند كلامه وبقي الملك وحده راكباً . واحناء الراس عند التسليم هو من ادلة التذلُّل والخوف حتى ان اليابانيين يركعون عند التحية . وخلع الحذاء عادة مشرقية قديمة دليل الاحترام وقد ورد ذكرها في التوراة حين راى موسى العليقة مضطرمة . ونزع شعر الوجه يكثر في البلدن الباردة لاتقاء تجليد النفس فيرتبط الفم بالشاربين . وارساله في الحارة لعدم

وجود سبب لنزعه

ومن العادات ما هو مفيد كغسل الايدي قبل الاكل اذ ينزع عنها ما ربما يعلق بها من الجراثيم المرضية وهو افيد من غسلها بعد الاكل · والتسليم بعد لبس القفافيز (الكفوف) كعادة اهل باكو في روسيا مفيد لان اكثر انتقال العدوى باللمس · وعدم التقبيل عند التحية نافعٌ لان انتقال الجراثيم عن طريق الفم سريع الفتك فليتنا نستغني عنه

٥ — هل يستدل على الاخلاق والعادات

كنت مثل الكتاب اخفاهُ طيٌّ فاستدلوا عليه بالعنوانِ

اشتهر علم الفراسة عند العرب كغيرهم ثم عُدَّ من الخرافات وبعد تمحيص قرَّر العلماء في القرن الماضي ان منه ما يستدل به على الاخلاق من اعضاء الجسم وقد وضع فيه كتاباً عربياً العالم الفاضل جرجي افندي زيدان وكنت اود ان اظهر لكم شيئاً مما قرروه ولكنه يقتضي طريقة الفانوس السحري ونحوها لتمثل لكم اختلاف الاشكال فاضرب عنه صفحاً واشير الى ما يمكن ان ابلغكم اياه من طريق الاذن شان فن الخطابة · ولا يخفى أن كثيراً من

احوال الانسان يدل على طباعه فمن كان سريعاً اسرع في كل شيء كالمشي والكتابة والكلام ومن كان بطيئاً ظهر بطوءُه في نحو ذلك من الظواهر وقال بعضهم ان من احتاج الى وسادة عالية كثيراً عند نومه فهو عصبي المزاج سريع التأثر ومن نام على الواطئة كثيراً فهو قليل الدم ضعيف الارادة سوداوي الى غير ذلك كدلالة الاحداق وانبساط الوجه وانقباضه حتى ان الافرنج قالوا العين نافذة النفس اي شباكها . وقال زهير بن ابي سلمى

الود لا يخفى وان اخفيته   والبغض تبديه لك العينانِ

واهم فراسة نستلفتكم اليها الان هي المبنية على قول بعضهم (الرجال تحت سن اقلامها) فنأخذ شيئاً من النظم والنثر نستدل منه على طباع صاحبه لان الانشاء مرآة تنعكس عليها افكار المنشيء فتعرف اخلاقه من تضاعيف سطوره التي تمليها عواطفه في اكثر الاحوال

فمن عرف ان الاسكندر المكدوني المشهور بذي القرنين بكى لمَّا لم يجد بلداناً يفتتحها عرف انه كان شديد الطمع لاسيما اذا قرأ ما كتبه لاستاذه ارسطو الفيلسوف يلومه فيه لانه اظهر كتب الفلسفة فساوى بذلك بين الملك والرعية وهو يضن بها ان تدور على غير فمه وتجول في غير خاطره . ومن عرف ان بطليموس لاغوس أمر

كل واحد في مملكته ان يؤلف حتى جمع مكتبة الاسكندرية الشهيرة حكم عليه انه كان كريماً بمعارفه · ومن لا يحكم برقة عواطف السيدة يوت الكاتبة الانكليزية الشهيرة اذا سمع ان امرأة احد ملوك سيام بعد ان طالعت روايتها في الاسترقاق او النخاسة لم تتمالك ان اطلقت جميع عبيدها لانها امتلأت رقة وحناناً من خلال سطور كاتبة رقت شواعرها ولطف ذوقها

ومن قرأ بعض مقدَّمات الكتب التي صنفها علاَّمتنا اليازجي رحمه الله يستجلي منها دماثة اخلاق وتواضعاً ورقة عواطف فاذا قابلها بما يكتبه بعضنا في ديباجة كلامه من الاسجاع الغريبة التي مدارها على قولنا (وطرقت باباً لم يسبقني اليه موءلف او وجاء ذلك فريداً في بابه) ونحو ذلك مما يتقاضى الناس المديح عرف كيف يستدل على الاخلاق من مرآة الكتابة

ومن منا لا يحكم بجبن القائل

أَلا لا تلمني ان فررت فانني اخاف على فخَّارتي ان تحطَّما
فلو انني في السوق ابتاع مثلها وجدِّك ما باليتُ ان اتقدَّما

وبشجاعة الآخر ولو لم يدرِ انه عنترة بقوله

احنُّ الى ضرب السيوف القواضبِ واصبو الى طعن الرماح الكواعبِ
واشتاق كاسات المنون اذا صفت ودارت على راسي سهام المصائب

ويطربني والخيل تعثر بالقنا حداة المنايا وارتهاج المواكبِ

ومن ينكر عي القائل . ولم يعرف انه باقل

خروج اللسانِ وفتح البنانِ اخفُّ عليَّ من المنطقِ

ولا يقرّ للاخر بفصاحة اللسان . وان لم يشعر انه قس اسقف نجران . اذ قال

لقد علم الحيُّ اليمانون انني اذا قلتُ اما بعدُ اني خطيبها

ومن لا يؤكد خوف ابن سيناء من البحر وهو القائل

لا اركب البحر اخشى عليَّ منه المعاطبْ

طينٌ انا وهو ماءٌ والطين في الماء ذائبْ

واقدام ابن البني بقوله

اقول وقد صدرنا بعد يومٍ أشوقٌ بالسفينة ام نزاعُ

اذا طارت بنا حامت عليكم كأنَّ قلوبنا فيها شراعُ

واعوجاج من انشد

من يستقم يحرم مناه ومن يزغ يختص بالاسعاف والتمكينِ

انظر الى الالف استقام ففاته نقط وفاز به اعوجاج النونِ

واستقامة من عارضه بقوله

ان كنت تسعى للزيادة فاستقم تنل المنال ولو سموت الى السما

الف الكتابة وهو بعض حروفها لما استقام على الجميع تقدما

وطيب اعراق يازجينا القائل

يا ناظمين الهجا خلوا قصائدكم لمن يبين لها في عرضه أثرُ
اذا ضربت بسيفٍ قاطعٍ حجرًا تثلَّم السيف اذ لم يشعر الحجرُ

وسوء اخلاق الآخر وان لم يعرف بانه الحطيئة الهجآء اذ قال

أبت شفتاي اليوم الا تكلُّمًا بشرٍّ فما ادري لمن انا قائلُهْ

ولم يلبث ان نظر في الماء فرأى وجهه فنظم بيتًا في هجائه

ومن لا يرى عربدة من قال

اجعلوا ان متُّ يومًا كفني ورق الكرم وقبري المعصرهْ
وادفنوني وادفنوا الراح معي وضعوا الكاسات حول المقبره

ولطف ابن الوردي بكلماته التي قال فيها

واهجر الخمرة ان كنت فتىً كيف يسعى في جنونٍ من عَقَلْ

ومن لا يكفّر القائل

حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافة يا امَّ عمرِو

ويري حسن ايمان المنشد

ولو انا اذا متنا تركنـا لكان الموت راحة كل حيِّ
ولكنا اذا متنا بعثنـا ونُسأل بعدهُ عن كل شيِّ

واظهر من كل هذا ان بعضهم لم يشأ ان يسمع قول ابن الورديّ الآنف ذكره فغيَّره بتشطيره حتى صار

واهجر الخمرة ان كنت فتىً   ترك البسط وبالهمّ اشتغلْ

انما الهم جنون عجبي   كيف يسعى في جنون من عقَلْ

والاخر لم يعجبه قول ابن عبد القدوس حتى شطره بقوله

ان القلوب اذا تنافر ودُّها   عند الاكارم جبرها لا يعسرُ

لكنها عند اللئام عسيرةٌ   مثل الزجاجة كسرها لا يجبرُ

وكل ذلك مبني على ان الكلام يجب ان يكون صادراً عن الاعتقاد الحقيقي والاَّ فان ابن جبير مع حبه للاسفار قال

لا تغترب عن وطنٍ   واذكر تصاديف النوى

اما ترى الغصن اذا   ما فارق الاصل ذوى

وشيخنا اليازجي قال في مجمع البحرين مع اشتهاره بالصدق وكرم الطباع

والصدق ان القاك تحت العطبِ   لا خير فيه فاعتصم بالكذبِ

بمثل هذا كان يوصيني ابي

وهذا من باب قولهم اذا تعارض المانع والمقتضي قدم المانع . والخلاصة ان دلائل الاخلاق والعادات كثيرة حتى قال بعضهم ما دلالة الدخان على النار ولا العجاج على الريح بأدلّ من ظاهر الرجل على باطنه

---

٦ — هل نقوّم العادات وما هي افضل واسطة لذلك

يا من يحاول ان يغيّر طبعه ما قوّم العادات مثل تهذُّبِ
فاحرص عليه غير وانٍ انه شرف المقيم وحلية المتغرّبِ

قلنا ان التربية ليست الا تغيير الاخلاق والعادات وقال احد علماء الالمان (اذا فوّضت اليّ تربية الاطفال اغيّر وجه الارض) فبالتربية اذن سعادة الكون لان المجتمع الانساني يترقى وينحط بحسب مبادىء تربية افراده وقال ارسطو الفيلسوف من لم يقدر على الفضائل فلتكن فضائله ترك الرذائل . والتربية مشتقة عندنا من ربا اي زاد ونما فكأن الانسان ينمو بالآداب ومثلها التأديب ماخوذ من أَدُب ادبًا اي ظرف وحسن تناوله فهو اديب والتثقيف والتقويم كلاهما من تسوية الرمح والتهذيب من اصلاح الشجرة فيكون مدار التربية على انماء قوى الانسان الطبيعية والعقلية والادبية وكل ذلك يرجع الى تغيير الاخلاق والعادات وعندي ان ذلك ينحصر بالصدق لانه اساس الفضائل قال بعض الفرنجة للخطيئة ادوات كثيرة ولكن الكذب قبضة لنصاب كل من تلك الادوات وقال اخر اذا صور الصدق كان اسدًا والكذب ثعلبًا والفرق بينهما ظاهر

وكل منا يتعلم من اربع مدارس (اولاها) مدرسة البيت وهي تتوقف على الابوين خصوصاً الام لانها مصدر الاخلاق والرجل مصدر الشرائع او كما قال الآخر ان المرأة بقلبها اي مركز العواطف والرجل بدماغه اي مركز القوى العقلية ويقول الجرمان الزوجة ام البيت فاذا كان ذلك كذلك فاننا ما دمنا نرى المراة تلفظ امام بنيها الكلمات بلثغة للتحبب وتنشدهم الاغاني المخيفة وتكرر على اذانهم ذكر البعُّ والغول والدوّ وما شاكل والالفاظ البذيئة وتحبب اليهم الكذب والهمجية وتملأ اذهانهم بالقصص الخرافية وتطرحهم مطارح الهوان ولا تعتني بتغذية نفوسهم بالادب ولا تعودهم على المبادىء القويمة فلا نعقد الامل على التربية الصحيحة وما زلنا نعد الاولاد بالتراث ونتعهدهم بالنفقات الفادحة ونجاريهم باعمالهم وآرائهم المعوجّة ونكرمهم كانهم هم الوالدون ونحن الابناء فنحن نسعى بهم الى ابواب سوء التربية وشر القصد. فلماذا لا يقتدي نساؤنا باليونانيات اللواتي كنَّ ينشدن لاولادهنَّ ما يدل على الحماسة والمروءة لتنشيطهم وهنَّ يقصدن تنويمهم ويكفي المرأة ما قيل عنها ان التي تهز السرير بيسارها تهز الارض بيمينها

(وثانيها) مدرسة العلم وليست تقوم بالابنية الشاهقة والغرف

الفسيحة والادوات الكثيرة والمعدات الوفيرة بل برئاستها وعمدتها كالاساتذة والنظار فاذا لم يتقن فيها تهذيب العقل وتطبيق العلم على العمل وبث روح الالفة والمبادىء الصحيحة وحب الدين والدولة والوطن وتقوم على طلبتها قيام الكرام على كرمه فلا تقتطف ثمر اتعابها وكما ان سلطة المهذِّب شرط اوّلي فطاعة المهذَّب بعده فعلى طالب العلم ان يكون كذلك الكرم مسلماً نفسه للقائم على اصلاحه لا يعارضه بشيء وهذا ينحصر بمعرفة الواجبات

فالمدارس التي تلقن العلوم فقط ولا تهذب الاخلاق يصدق عليها قول العلامة سبنسر الانكليزي (ان عقلاء الناس يبذلون جهدهم بتاصيل المواشي ولا يهتمون قليلاً بتاصيل البشر) . والتلامذة الذين يزعمونهم انهم انما جاؤوا المدرسة لاكثار الكلام هم اشبه بالشاب الذي اتى سقراط ليدرّسه الخطابة فلما رآه كثير الكلام تقاضاه ضعف الاجرة فساله عن ذلك فقال لانك تحتاج الى علمين علم السكوت وعلم الكلام . والذين تنفخهم الكبرياء يجب ان يسمعوا قصة يحيي لما جاءه رجل وقال له انت احلم من الاحنف فقال ما تقرّب اليَّ من اعطاني فوق حقي . والذين يظنون انهم يتعلمون العلم دفعة واحدة كما يصبغ الثوب يشبهون الدجاجة التي كانت تبيض كل يوم بيضة ذهب فزادت صاحبتها

طعامها ليكثر بيضها فانشقت حوصلتها وماتت ومن اراد ان يتشبه بغيره بالظاهر فقط ضارع الضفدعة التي انتفخت لتصير جاموساً فما لبثت ان ماتت · ومن ظن انه يستعير ادب غيره ومعارفه كان كذلك الحمار الذي لبس جلد الاسد ليستاسد ولما دعاه طبعه الى التمرغ كعادته عاد حماراً · ومن خيّل له ان المدرسة يجب ان تضع له الذكاء كما يضع الساعاتي نابض الساعة عند اصلاحها فانه انما يطلب المحال و يجب ان يسمع ما قاله شاعرنا اليازجي اثابه الله :

اذا الآداب لم تكُ بالسجايا ... فليست بالزمان ولا المكانِ
وان اعطى المؤدّب فضل علمٍ ... فلا يعطي الحذاقة في الجنانِ
ولا يعطي الفخارَ ابٌ كريمٌ ... اذا طرحتك نفسك في الهوان
فكن من رهط باهلةٍ اديباً ... ولا تكُ من بني عبد المدانِ

ومن كان كثير الكلام قليل النفع اشبه المنفخ الذي ترى قوته بفمه · ومن ظن انه يشتهر بمدح نفسه وكثرة اطرائها هو نظير الطبل الذي يضج كثيراً فيوهم السامع انه ملآن وان شُقَّ كان فارغاً · ولكن من يعمل واجباته ويترك مدحه للناس ضارع الساعة الصغيرة التي لا تسمع صوتها الا اذا ادنيتها من اذنيك ومع ذلك هي دائمة العمل دائبة في ما انتدبت اليه تسير ببطء فتقتل بعقربيها

الاوقات وكلها آلات دقيقة تدل على نفعها وعظمتها· ومن يتكل على غيره كان كطير الككو الامركي الذي يبيض في عش غيره لكسله· ومن خدع غيره يجب ان يعلم انه سيخدع اذ يصدق عليه ما حكي عن مصور رسم عنقوداً ملوّناً حتى حامت عليه الطيور لشدة اتقانه فسرّ بخداعه الطير ولكنه لم يلبث ان خدع برسم صفحة على زواياها الاربع مسامير كانها طبيعية عرضها عليه مصوّر آخر فلما رآها قال له ارفع هذه المسامير وارنا ما وراءها فادناها منه واذا بها صورة لا يمكن رفعها فخدعه ذلك المصوّر· ومن اعتنى بالحكمة وبحث عن الحقائق كان كسليمان الحكيم لما ارته ملكة سبا زهرتين احداهما صناعية والاخرى طبيعية وطلبت منه ان يميزهما فدعا بنحل فاحضر فاطلقه عليهما فحام على الطبيعية فقال هذه هي

فكونوا كالحاكي (الفونغراف) الذي ينطبع فيه كل صوت ويحفظ حتى يعاد ولا تكونوا كالبوق الذي يقبل جميع الاصوات اعتماداً على نفخ الفم وحركة اليد ولا يعلق عليه شيء منها· وتمسكوا بواجباتكم مندفعين اليها من انفسكم كالمغنطيس الذي يجذب الحديد كلما قرب منه ولا تكونوا كالكهرباء التي تحتاج الى الفرك والعرك لتجذب العصافة· واحرصوا على الفضائل حرص الحرباء على التمسك

بالاغصان ولا تكونوا مثله في التلون بل اثبتوا على ما عرفتم وارشدتم
الى انه الافضل . كونوا كالماء في سهولة الانقياد والصفاء حيث
يستدل من ظاهركم على باطنكم ولا تسيروا مثله باعوجاج لان من
طبع السوائل ان لا تسير على خط مستقيم . خذوا من ميزان الثقل
(بارومتر) لطف حاساته لانه يتاثر لاقل تغير ولا تنقلبوا مثله مع
الهواء . افيدوا كالشمع الموقد ولا تذوبوا مثله امام ما يعترضكم من
المشاق . تمثلوا بالبخار في لطفه وجرّه للاثقال ولا تفلتوا مثله
متفرقين في الفضاء . احذروا ان تكونوا في عربدة اخلاقكم كالبركان
الهائج الذي تنفر منه الناس او تكونوا كالبصل كلكم روؤس بل
كالنحل الذي ينقاد الى رئيس يدير شوءونه والخلاصة ان النجاح
يتوقف غالباً على الارادة والثبات والاستقامة وفي هذه مجموع
الاداب . فارتاضوا بالادب وتمسكوا بعروة التهذيب الوثقى واضبطوا
النفس واعتدلوا في اعمالكم واقتصدوا في آمالكم واصدقوا في
اقوالكم لان الصدق كما يقول الامركان هو افضل من رئاسة
الجمهورية واعلموا ان سر النجاح هو ان يعرف الانسان كل شيء
عن شيء واحد ولا يعرف شيئاً عن كل شيء ولا تنسوا ان ليس
اشد لضعف الانسان من الوداعة والاحسان . وقصارى الكلام
احسنوا اعتباركم بمحاسن الاخلاق ومساوئها فمن الاولى القناعة

والحلم والرحمة والوفاء وكتم السرّ والتواضع والصدق والكرم والشجاعة والعدل ومن الثانية الشره والسفه والقساوة والغدر وافشاء السر والكبرياء والكذب والبخل والجبن والجور وبافضل العادات واسوإها فمن الاولى المحافظة على عادات الوطن النافعة لا سيما ما يتعلق بالماكل والمشرب والملبس ولقد قال القديس امبروسيوس للقديس اوغسطينوس (لما نكون في رومية نعمل كالرومان) وقال بوالو الافرنسي لكل بلاد شرائعها وعاداتها واخلاقها

ومن الثانية اقتباس ما لا يلائم ذوقنا ولا هو من طبيعة بلادنا ونريد به التمدّن الكاذب او التفرنج الذى ضرب اطنابه بين ظهرانينا فقيدنا بسلاسل الفقر وطرحنا مطارح الغربة وكان اجلال عادة غيرنا احتقاراً لنا

واحذروا بعض عاداتنا مثل عدم الاعتقاد بانتقال العدوى الذي نشر الامراض القتالة بيننا كالسل وغيره وقاكم الله منها. وتحميل المريض ثقل العيادة . وكفى بالحديث الشريف واعظاً اذ قال (العيادة قدر فُواق ناقة) اي ان زيارة المريض يجب ان تكون قصيرة وما شاكل مما يكون ضرره اكثر من نفعه (وثالثها) مدرسة السلوك وهي تقوم على اركان المعاشرة واختيار من جمع محاسن المبادىء واهم ما يكتسب من هذه المدرسة علم التقليد

والاقتداء وهو نوعان نافع وضار فليكن المقلّد ذا بصيرة في الامر وحسن ذوق وحنكة لئلا يقتبس ما يعبث براحته ادبياً ومادياً وصحياً ولقد قال الافرنج اخبرني عن معاشريك فاخبرك من انت وقد سبقهم الى ذلك طرفة بن العبد البكري بقوله

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينهِ فكل قرينٍ بالمقارن يقتدي

وقال المأمون الاخوان ثلاث طبقات اخ كالغذاء الذي تحتاج اليه في كل يوم وفي كل وقت وهو الاخ العاقل الاديب واخ كالدواء تحتاج اليه عند الداء وهو الاخ الاريب واخ كالداء الذي لا تحتاج اليه وهو الاحمق · فليعرف كلٌّ منكم من يجب ان يتقلّده لان العقل كالاسفنج يمتصّ السوائل فاحذروا ان يعلق به غير افضل العادات والاخلاق بل هو كزجاجة التصوير التي ينطبع فيها كل ما يمر امامها فلا تمثلوا غير رسوم الآداب والفضيلة · فاقتدوا بعظام الناس ومشاهيرهم واكثروا من قراءة سيرهم لان بها تقويمكم ولا تكونوا كالملعقة التي ترافق المرق ما دام في الوعاء ولا تدرك شيئاً من طعمه بل كونوا كالنحلة التي تجتني من الزهر عسلاً ولا تؤذيه · ومن كان سريع الاقتباس حسن التقليد ولكنه قليل المنفعة فهو كالورق المصّاص (النشاش) الذي تنطبع عليه جميع الاشكال ولكنه بدون نفع · او كان ينفع غيره ولا ينفع نفسه

فهو كالمزولة اي الساعة الشمسية المعلقة بصدر بيت ترشد الناس الى الوقت والسكان لا يعلمون من منافعها شيئاً · ومن صاحب من لا يلائمه كان اشبه بما يحكى عن السيل انه حمل ابريقين خزفي ونحاسي وسار بهما فقال النحاسي لرفيقه الخزفي هلمَّ نتعاون على دفع الضرر فاجابه الخزفي دعني وشأني لانك كيفما عملت كسرتني · ومن كان ينذر الناس بكلامه ولا يعمل كقوله فهو نظير الجرس الذي يدعو الناس الى العبادة وهو لا يعرف منها شيئاً · وماذا عساني ان اضرب لكم امثالاً وحولكم من دواعي الاتعاظ ومحاسن الاقتداء مايجب ان تقتفوا اثره فاياكم والتطرُّف بالميل الى التقليد ظناً منكم بان كل ما هو عند غيركم إفضل مما عندكم تلك هي الضربة التي أصمتنا فاقلعوا عنها واقتلعوا من عاداتكم ما لا يناسب الادب والعلم وسدّدوا خطواتكم تنالوا فلاحاً

(ورابعها) مدرسة الدهر اي اختبار الشؤون بالنفس وهي مبنية على دعائم المدارس الثلاث بل نتيجة مبادئها القويمة · فليست اقوال الفلاسفة والعلماء وادابهم التي سطروها في بطون الكتب وتناقلتها الالسن والاقلام وأرهف بها الذهن وسمعتم منها ما سمعتم الا نتيجة دروس هذه المدرسة فهي زبدة حقائق وخلاصة اختبارات فطالعوا ما كان مثل قصيدة يازجينا الحكمية التي مطلعها

اني لقد جربت اخلاق الورى حتى عرفت ما بدا وما اختفى

وما طُبع على مثالتها كلامية ابن الوردي ونونية البستي ولامية الطغرائي وبائية ابن عبد القدوس وما ضاهاها مع ما يندمج في سلكها من الامثال والحكم فينشد كل منكم بعد ان يرى نفع التهذيب قول يازجينا رحمه الله

روَّضتُ نفسي بالرضى منذ الصبا فجنيت طيب النفس من ادواحهِ

والنفس كالمهر الجموح اذا نشا في جهله اعياك ردُّ جماحهِ

ان انت لم تصلح طريقك يافعاً فاذا كبرت عجزت عن اصلاحهِ

والجهل مثل الداء يرسخ في الفتى فيسد عن بقراط نهجَ فلاحهِ

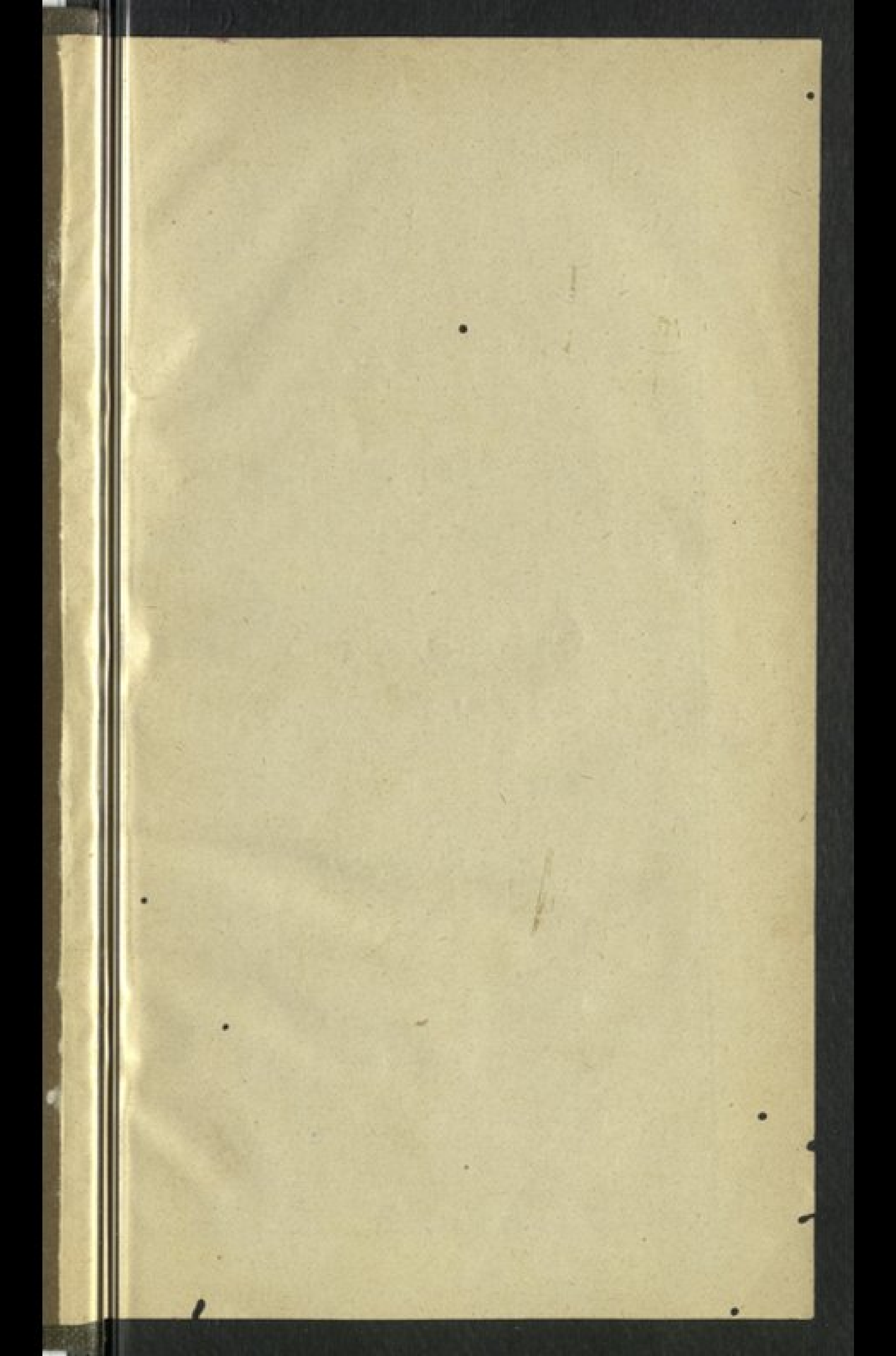
واعلموا ان البحث عن الاخلاق شبيه بعلم الفسيولوجيا اي منافع الاعضاء والتهذيب هو كعلم الطب او الجراحة فان صاحبهما بعد ان يعرف منافع ذلك ومضاره يسعى باصلاحه ويرشد الى العلاج فيضمد ما يحتاج الى الاصلاح ويقطع ما يفسد جسم الهيئة الاجتماعية جعلكم الله ممن تُضمَّد جراحهم وتندمل ولا حملنا على قطع احد منكم من جسم المدرسة لاصلاح الباقين بمنه وكرمه

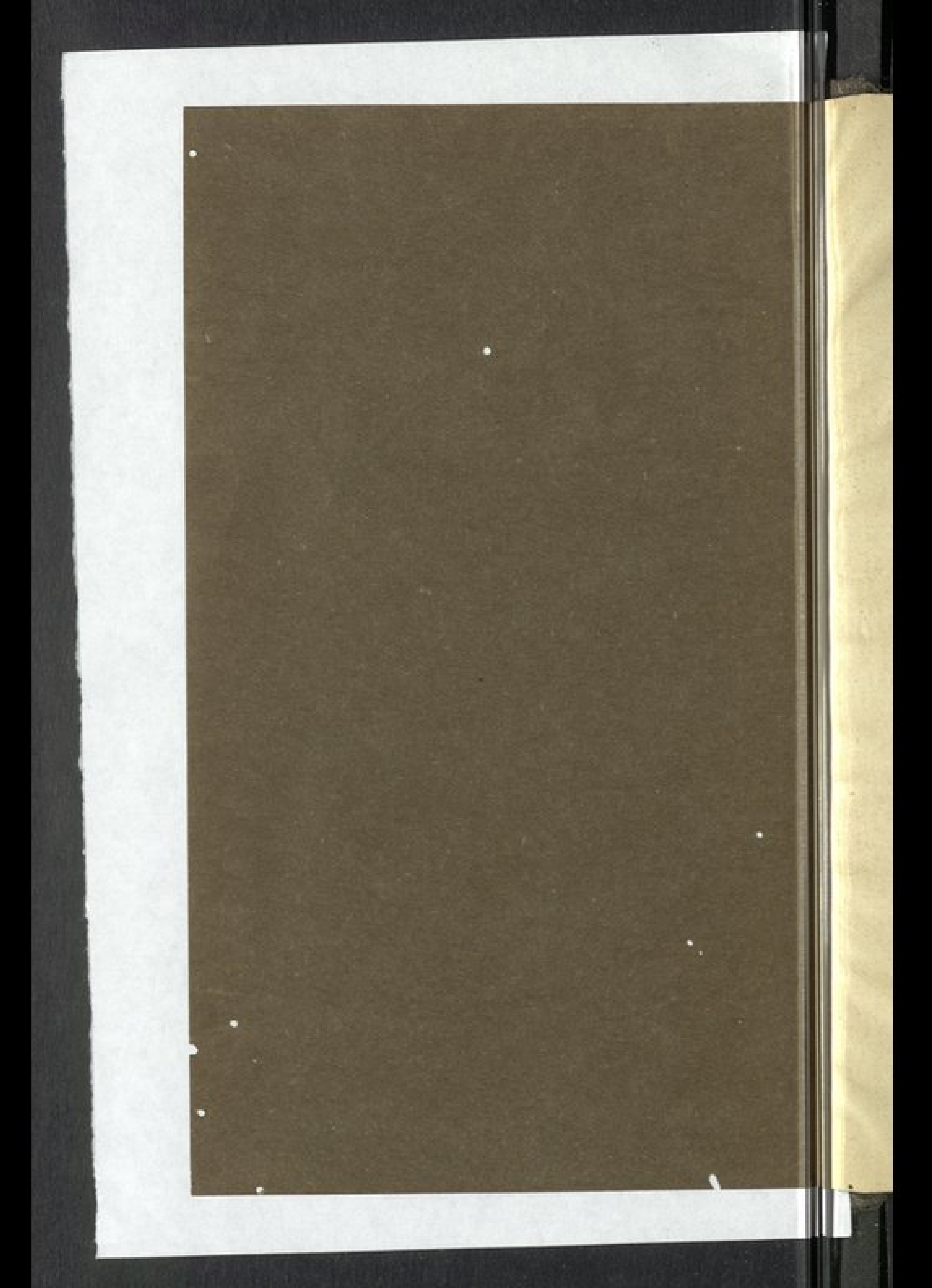
هذا وفي الختام استزيدكم من الشكر لمن بذلوا النفس والنفيس في تشييد هذا المعهد العلي الزاهر والقوا مقاليد اعماله الى حضرة رئيسه المفضال وعمدته الكريمة واستحثكم ان تغيّروا عاداتكم

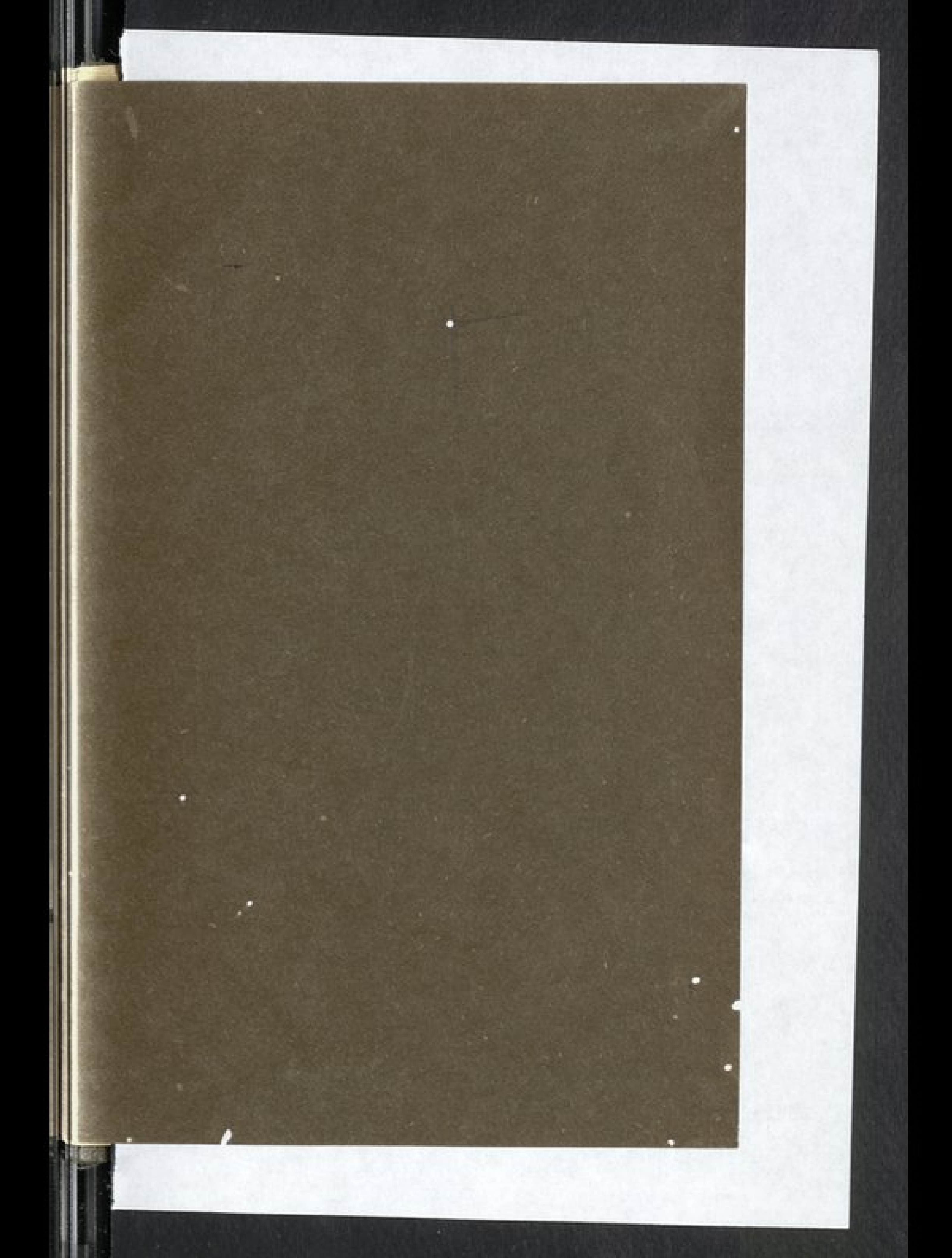
واخلاقكم الرديئة وتستبدلوها بفضائل تترك لكم في عالم الادب ذكراً جميلاً فتنتقلوا في المدرستين الباقيتين امامكم تنقلكم في هذه المدرسة بسيرة حميدة وسريرة طيبة والله يتولى اموركم بالسداد ويفتح لكم ابواب الاسعاد · ويهديكم الى محجة الرشاد · بظل دولتنا العلية العثمانية وتنشيط رجالها العظام للمعاهد الادبية · بل بسعي رجال العلم والفضل · وذوي الاقدام والنبل · ليفتخر بكم الوطن المحبوب · وتنالوا فيه كل مطلوب · واخر ما استودعكم هذين البيتين مسك الختام · من نظم يازجينا الهمام

وان النصح في الحكماء يجري كجري الماء في الروض النضيرِ
وفي اذن الجهول يضيع هدراً كضوء الصبح في عين الضريرِ


انتهى










AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT